

لحياته الثانية ، الحياة الآخرة في دير من أديرة فلسطين^(١) . ولم تصرف الوظيفة وجلالها يوحنا عن العلم والكنيسة التي كونه وصقلت عقله . بل على العكس من ذلك اتخذ الوظيفة وسيلة للكنيسة والدين . وسيلة يتقرب بواسطتها إلى الرؤساء ، والرعايا . ليخفف من شدة حدتهم إن كانت هنالك حدة ضد المسيحيين عامة وضد الأرثوذكس وضد البيزنطيين على الأخص ، ولذلك كان رسولا سياسيا ودينيا في بلاط الخليفة في نفس الوقت^(٢) . وقد عرف البيزنطيون ما حصل عليه قديسهم هذا من منزلة في بلاط « ملك العرب » المسلمين « Saracens » ولا سيما رجال الدين منهم وساسة الحكومة فكلفوه بمهمات صعبة مختلفة ووسطوه لحل مشاكل دولية معقدة . حتى تصوروا أن مركزه في سورية كان يضاهي مركز الخليفة بدليل إغداقتهم عليه الألقاب التي كانوا يلقبون بها عادة خلفاء المسلمين ، ونعمهم بإياه بالعموت التي كانوا ينتنون بها عادة آل أمية ملوك الشام^(٣) .

ونال يوحنا من تقدير رجال الدين والكنيسة ما ناله من تقدير الدولة البيزنطية وجماعة الحكومة . نال لقباً عظيماً هو لقب « قديس » ولقب بلقب آخر جميل اللفظ والمعنى هو لقب « يوحنا ينيوع الذهب »^(٤) وخصصت له الكنيسة الأوغريكية يوم ٤ ديسمبر ويوم ٦ مايو ليكونا عيدين خاصين بهذا القديس^(٥) . الذي برع في علم النطق والفلسفة وفي الثقافة اليونانية ، والذي اتخذ من النطق سلاحاً يدافع به عن الكنيسة ، والذي فلسف الكنيسة الشرقية وأخضع المعارف الأوغريكية الوثنية لحكم سلطان الدين المسيحي^(٦) .

ووعب الله صاحبنا بصرأ في العلوم الزمانية فاق بصره في العلوم الدينية . برع في علوم زمانه وتقدم على أقرانه وخلافه . وألف كتابه الشهير المعروف باسم « ينيوع الحكمة » اقتصر في القسم الأول منه على محاورات أرسطو . وقد جمع العلامة لوكيان

يوحنا الدمشقي

JOHANNES DAMASCENUS

للدكتور جواد علي



عجيب أمر أولئك المسلمين ! كانت صدورهم والله رحبة أرحب من صدور أهل القرن العشرين . هذا يوحنا الدمشقي "John. of Damascus" أحد آباء الكنيسة اليونانية وأحد كبار القديسين يطعن في عقيدة المسلمين ويؤلف الكتب في الرد عليهم ويجادل علماءهم في صحة دعوى النبي العظيم ، وهو مع ذلك موظف من كبار موظفي بلاط أمير المؤمنين ، ورجل من ذوى الحل والعقد في دمشق عاصمة خليفة رسول رب العالمين . عاصر يوحنا الدمشقي أو منصور بن سرجيوس "Sergius" المعروف « ينيوع الذهب » الخلفاء الأمويين وجالسهم وعمل لهم في دولتهم وكانت له دالة عليهم^(١) ، كما كانت لوالده «سرجيوس» حرمة في نفوس العرب ومنزلة انتقلت إلى ابنه من بعده . كان سرجيوس هذامن الموظفين المشهورين في العهد البيزنطي ومستشاراً مالياً معروفًا ، شهد الفتح الإسلامي لسورية وظل محافظاً على منصبه هذا حتى في الإسلام^(٢) . ولعله كان موظفًا في عهد عبد الملك بن مروان^(٣) .

أما ولد يوحنا فلقد كان من المقربين إلى الخليفة يزيد بن معاوية والأثريين عنده . ولما توفى والده خلفه في منصبه المالي الكبير وظل في هذد الوظيفة حتى خلافة هشام (٧٢٤ - ٧٤٣) إذ ترك الدنيا والمركز الحكومي منا لينصرف إلى إعداد مايلزم

(١) راجع The Encyclopaedia Britannica 14. ed val. 13. p. 102. كذلك كتاب المخطوطات العربية لكتبة النصرانية للأب لويس شيخو اليسوعي بيروت ١٩٢٤ ص ٢١٧ .
(٢) راجع Hitti, History of the Arabs p. 246 . ولكنه يقول كان جده منصور بن سرجيوس والصحيح أن منصور هو اسم يوحنا العربي وأن سرجيوس هو اسم والده . راجع دائرة المعارف البريطانية طبعه ١٩١٤ ص ١٣٠ وما بعدها .
(٣) Becker. Islam Studies val g p 434 .

(١) Hitti, p. 246

(٢) Islam Studies vol 1 p, 434 M. 94 449.

(٣) راجع Islam Studies. vol 1 p, 434 وكذلك ميار M. 94 449

(٤) The Encycl Brit. vol 13 p, 103 Harnacks, History of Dogmatrovery, IV p, 322

(٥) دائرة المعارف البريطانية ج ١٣ ص ١٠٢

(٦) Textbook of the History of Philosophy, p, 227

طريقة استخدام الكليات والجزئيات والمقدمات والتأنيج والحوار
والناظرة .

وبالنظر إلى جهل أبناء دينه بأسباب الجدل الديني وبالبراهين
العلمية المنطقية فإنه وضع لهم كتاباً في الناظرة على طريقة السؤال
والجواب على هذا النسق : « إذا سألك العربي كذا فأجبه بكذا
وليس بكذا »^(١) ، وشدد على إخوانه بوجوب حفظ هذه المحاور
واتباعها حرفياً وشدد في تحريم مبادرة العربي بالسؤال خوفاً من
الزلل والوقوع في مهاوى الضلالة ، ومن الارتباك انذى قد يؤدي
إلى تغلب العربي على المسيحي في النهاية .

وهذه الرسالة حوار (Dialogue) بين عربي مسلم وبين
مسيحي جمع فيها أكثر ما كان يدور في خلدته وفي خلد الجدلين
من أسئلة ومن أجوبة ومن فروق بين الديانتين . خذ مثلاً لذلك
ما جاء في طبيعة المسيح . قال : « إذا سألك العربي ما تقول في
المسيح ؟ قتل له إنه كلمة الله . ثم يسأل النصراني المسلم : بم سمي
المسيح في القرآن ؟ وليرفض أن يتكلم بشيء حتى يجيبه المسلم فإنه
سيضطر إلى أن يقول : « إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله
وكلته ألقاها إلى مريم وروح منه »^(٢) . فإذا أجاب بذلك فأسأله :
هل كلمة الله وروحه مخلوقة أو غير مخلوقة ؟ فإن قال مخلوقة فليرد عليه
بأن الله إذن كان ولم تكن له كلمة ولا روح ، فإن قلت ذلك فسيفهم
العربي ، لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين »^(٣) .

وفي موضع من مواضع الرسالة يجيب على اعتراض المسلمين
على المسيحيين في قضية عبادة الصليب وتقديسه بقوله : « أنهم
تتكرون علينا تقديس الصليب وهو من خشب ، في حين أنكم
تقدسون حجراً أسود هو رأس « أفروديت » Aphrodite »^(٤) .
ثم يستمر فيقول : « وتدعون بأنكم إنما تقدسون هذا الحجر
الأسود لأن إبراهيم الخليل على زعمكم كان قد اضطجع عليه أو

تأليفه اليونانية ونشرها في « مجموعة الآباء اليونان »^(١) . والعلامة
الفرنسي « لوكوين » Le Quien »^(٢) .

وهو بحملته وتفصيله مرآة صافية للكنيسة الأرثوذكسية
اليونانية في معلوماتها ومعارفها في ذلك العهد . وبحكم مقامه في
الخط الأول من خطوط القتال بين الإسلام والنصرانية اضطر إلى
دراسة الأسلحة التي شمرها المسلمون على المسيحيين وعلى التنقيب
في القرآن الكريم وفي أحاديث الرسول وفي سيرة النبي وأصحابه
من الأنصار والمهاجرين لعله يجد نقصاً أو ضعفاً يتخذ هدفاً
يهاجره أو ركناً يبنى عليه خطة هجمته على المسلمين بدون شفقة
أو رحمة وهوادة .

بهذه الروح اعتكف يدرس القرآن الكريم والحديث النبوي
وهو في عصر كان فيه أصحاب رسول الله أحياء يرزقون ، حتى
إذا ما حفظ القرآن وما شاء من أحاديث انطلق كالأسد يزار فأنحما
فكيه يريد موضعاً سهلاً يفرس فيه أنيابه من جسم للمسلمين .

بتلك الروح صار يفلي آيات القرآن الكريم وينبش في ثنايا
أحاديث الرسول وأخبار أصحابه من المهاجرين والأنصار لعله يثر
على ذلك الموضع السهل الذي يهجم منه على الإسلام ، أو
يمكن الطعن فيه بسلاح المنطق اليوناني الذي لم يتعمق العرب عليه
ولم يكن لهم به خبرة أو إلمام ، والذي صدوره الوثنيون إلى
النصارى قضى مدة في جسم الكنيسة حتى إذا ماتعله رجال الدين
استخدموه لمحاربة خصوم الدين . وفي الفصل ١٠١ من رسائله
وفصوله (بالآرامية، مياي) ، وهو الفصل الذي عنوانه بهذا العنوان
(De Heeresibus) ، وفي مناظراته الكثيرة معلومات غزيرة
تدل على اطلاع واسع على تاريخ المسلمين »^(٣) .

استشهد مثلاً في الفصول التي كتبها دفاعاً عن المسيحية التي
كانت تحتضر في سورية ومصر وفلسطين وفي المناطق العربية
الأخرى بآيات من القرآن الكريم وبكثير من الأحاديث لإثبات
وجهة نظره ولناقشة المسلمين بتلك المصادر في صحة دعواهم على

(١) Islam Studies, vol, 1, p, 435 دائرة المعارف البريطانية

J, Hell, The Arabic Culture, p, 75 ١٠٢ ص

(٢) سورة النساء آية ١٧٠

(٣) الترجمة تقلاً عن كتاب تراث الإسلام ج ١ ص ٢٤٧ . راجع

« أيضاً مياي » وكذلك Islam Studies, vol, 1, p, 437

(٤) كان اليونان يزعمون أن العرب كانوا يبديون إلهين هما

« أفروديت » و « ياخوس » وطن صاحبنا أن الحجر الأسود هو رأس

أحدهما وهو أفروديت . راجع تاريخ هيرودوتس M, 94, 769

(١) دائرة المعارف البريطانية ج ١٣ ص ١٠٢ كذلك الأب لويس

شيمو ص ٢١٧ أيضاً Migae, Patrol Graec XCIV (424-489)

(٢) Le Quien 2 vol, fol, Paris 1 712 .

(٣) راجع مياي M 94 1585 ff 96 1335 If o كذلك Islam

Studies p, 434 f vol 1

التي تعرض لها العصر الأموي لما كان لها من ارتباط بالوضع العام والسياسة فضلاً عن الدين .

تسم يوحنا العالم إلى فريقين : فريق دان بعبقيد « الجبر » والضرورة وهو فريق المسلمين ، وفريق دان بحرية الإرادة أو بالقول « بالاستطاعة » وهو فريق المسيحيين . وبعد أن ذكر أن المسلمين قاطبة كانوا يدينون بعبقيد « التقدر خيره وشره من الله » . وذلك على عكس مدلول الكلمة والمعنى الذي خصت به فيما بعد . قال : « إنهم إذاً يقولهم هذا ينسبون الشر والقيح إلى الله » . ولماذا؟ . يجيب على هذا الاعتراض بهذه الصورة . « هل يمكن أن يكون الله هو العلة والسبب والتفاعل لكل شيء حتى المكروه ؟ يقول المسيحيون لا ، لأن الله لا يمكن أن يكون خالقاً للقيح أو الشر — إذ يكون حينئذ ظالماً ومن المحال أن ينسب الظلم إلى الله . إن الله جل جلاله يجازى الظالمين والآثمين فكيف يجوز أن يجازى الله شخصاً أمراً أن يقوم بعمل فقام به ، أو يكون العقاب في الدنيا فضلاً عن ذلك عقاباً موجهاً ضد إرادة الله تعالى ، فإله أراد أن يكون ذلك الرجل شريراً فأصبح شريراً ومن الحيف إزال العقاب شخص لم يكن له في العمل أي استطاعة أو اختيار»^(١).

يقول يوحنا بعد ذلك « وسيعجب العربي من هذا القول ، وسيقول لك ولكنك أشركت من حيث لا تدري ، وعلى المسيحي أن يجيبه فوراً ولكنك نسبت الظلم إلى الله من حيث لا تدري . ثم ليباغت المسيحي المسلم بهذا السؤال : من خلق نطفة ولد الزنا في بطن أمه؟ سيقول المسلم : الله . وعلى المسيحي أن يرد عليه بقوله : إن الزنا عمل قبيح وهو في حد ذاته شر ، فإله على قولكم إذاً ساعد على هذا الشر ، وهو أمر لا يليق بالله تعالى»^(٢).

ومجيب يوحنا على لسان المسيحي بهذا الجواب « إننا معاصر النصراني نعتقد بأن الله لم يخلق شيئاً بعد أسبوع الخلق الأول . وإنما أمر الله عبيده بعد ذلك بالاستمرار على التكاثر والإنتاج . فجعل في صلب آدم أبي البشر قدرة الإنتاج وأصبح الإنسان منذ ذلك الحين منتجاً»^(٣).

لأنه ربط به الناقة حينما هم بذبح اسحاق . وتسخرون منا لأننا قدس الصليب الذي صلب عليه سيدنا عيسى المسيح»^(١)، وقوله هذا ظاهر البطلان لم يأت في القرآن الكريم ولا في الحديث الشريف^(٢)

جاء في القرآن الكريم : « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً»^(٣) وهذا معناه عدم اتفاق وجهة نظر المسلمين مع المسيحيين في دعوى صلب المسيح . وذهب صاحبنا منذهب المغالطة والجدل الصوري فعمد إلى التفسير وإلى الآية التالية مدعياً بأن في «ولكن شبه لهم» غموضاً تفسره الآية التي بعدها « بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً»^(٤) وفي هذه الآية على زعمه من الاعتراف بصحة الصلب والصليب ما لا يخفى .

ثم يقول : « وتدعون أيضاً بأن الذبح ، أي ذبح ابراهيم لإسحاق ، إنما كان في مكة ، ومكة بلد غير ذي زرع ، وهذا موضع لا ينطبق عليه ما جاء في التوراة ، وهو كتاب الله ، إذاً فكيف ليست بذلك المكان»^(٥) . ومن الأبحاث الأخرى التي تعرض لها هذا القديس مبحث تعدد الزوجات ، وبعد أن ذكر نص الآية التي حددت عدد الزوجات^(٦) ، وبعد أن ترجمها ترجمة حرفية^(٧) بحث في الطلاق ، وانتقل إلى زواج النبي بزيب وتطبيق زيد لها^(٨) ، ثم تحدث عن «التجشيش» بعد الطلاق الثالث^(٩) وعن قوله تعالى « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقد سوا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين»^(١٠).

ويبحث في قضية عويصة ، هي قضية حرية الإرادة والجبر والاختيار « مشكلة التقدر » ، وكانت قضية التقدر من أهم المشاكل

(١) Islam Studies, vol 1, p. 437, M. 94, 769

(٢) Islam Studies, p. 437 راجع المصادر الاسلامية

(٣) سورة النساء آية ١٥٦ .

(٤) سورة النساء آية ١٥٧ .

(٥) Islam Studies, vol, 1, p, 437

(٦) راجع سورة النساء آية ٣ .

(٧) راجع وسط ميمى ، M. 94, 769 .

(٨) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

(٩) سورة البقرة آية ٢٢٩ .

(١٠) سورة البقرة آية ٢٢٢ .

(١) Islam Studies, vol, 1, p, 440

(٢) M, 94, 1590 ff, Journal Aslatige, 57, 397

(٣) M, 94, 1593